## الباب الخامس والخمسون

# فى آداب الصّحبة والأخوّة

سئل أبو حفص عن أدب الفقراء فى الصحبة، فقال: حفظ حرمات المشايخ، وحسن العشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر، وترك صحبة من ليس فى طبقتهم، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادّخار، والمعاونة فى أمر الدين والدنيا.

فمن أدبهم: التغافل عن زلل الإخوان، والنصح فيما يجب فيه النصيحة، وكتم عيب صاحبه، واطلاعه على عيبٍ يُعلم منه.

قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: رحم الله امرءًا أهدى إلىّ عيوبى.

وهذا فيه مصلحةٌ كلية تكون للشخص ممن يُنبهه على عيوبه.

قال جعفر بن يرقان: قال لى ميمون بن مهران: قل لى فى وجهى ما أكره؛ فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكرهه؛ فإن الصادق يحب من يَصْدقُه، والكاذب لا يحب الناصح، قال الله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ لاَ تُحِبونَ النَّاصِحينَ ﴾ [1] والنصيحة ما كانت فى السرّ.

ومن آداب الصوفية: القيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم؛ فبذلك يظهر جوهر الفقير.

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان فى دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والمروة، فقال له العباس: قلعت ما كان رسول الله ﷺ وضعه بيده. فقال: إذن لا يردّه إلى مكانه غير يدك، ولا يكون لك سُلَّم غير عاتق عمر. فأقامه على عاتقه وردّه إلى موضعه.

ومن أدبهم: أن لا يرون لنفسهم ملكًا يختصون به، قال إبراهيم بن شيبان: كنا لا نصحب من يقول «نَعْلى» أخبرنا بذلك رضى الدين عن أبى المظفر، عن والده أبى القاسم القشيرى قال: سمعت أبا حاتم الصوفى، قال: سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك. وقال أحمد بن القلانسى: دخلت على قوم من الفقراء يومًا بالبصرة فأكرمونى وبجلونى، فقلت يومًا لبعضهم: أين إزارى؟. فسقطت من أعينهم.

---

(١) آية ٧٩ من سورة الأعراف.

وكان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه إنسانٌ شارطه على ثلاثة أشياء: أن تكون الخدمة والأذان له، وأن تكون يدُه في جميع ما يفتح اللهم عليهم من الدنيا كيدِه، فقال رجل من أصحابه: أنا لا أقدر على هذا، فقال: أعجبني صدقك وكان إبراهيم بن أدهم ينظر البساتين، ويعمل في الحصاد، وينفق على أصحابه.

وكان من أخلاق السلف: أن كل من احتاج إلى شيء من مال أخيه استعمله من غير مؤاخذه. قال الله تعالى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُم﴾ [١] أي مشاع هم فيه سواء.

ومن أدبهم: لأنهم إذا استثقلوا صاحبًا يتهمون أنفسهم، ويتسببون في إزالة ذلك من بواطنهم؛ لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة[٢] في الصحبة.

قال أبو بكر الكتاني: صحبني رجل وكان على قلبي ثقيلاً، فوهبت له شيئًا بنيَّة أن يزول ثقله من قلبي، فلم يزُل، فخلوتُ به يومًا وقلت له: ضع رجلك على خدّى فأبى. فقلت له: لابدّ من ذلك. ففعل، فزال ما كنت أجده في باطني.

قال الرقيّ: قصدت من الشام إلى الحجاز، حتى سألتُ الكتَّانيّ عن هذه الحكاية.

ومن أدبهم: تقديم من يعرفون فضله والتوسعةُ له في المجلس، والإيثار بالموضع.

روى أن رسول الله ﷺ كان جالسًا في صُفَّةٍ ضيقة، فجاءه قوم من البدريين، فلم يجدوا موضعًا يجلسون فأقام رسول الله ﷺ مَن لم يكن من أهل بدر فجلسوا مكانهم، فاشتد ذلك عليهم فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا ﴾ [٣].

وحكى أن عليّ بن بندار الصوفي ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائرًا، فتماشيا، فقال له أبو عبد الله: تقدّم.

فقال: بأى عذر؟ فقال: بأنك لقيتَ الجنيد وما لقيتُه.

ومن أدبهم: ترك صحبة مَن هَمُّه شيء من فضول الدنيا. قال الله تعالى ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إلا الْحَياة الدُّنيا ﴾ [٤].

ومن أدبهم: بذل الإنصاف للإخوان وترك مطالبة الإنصاف. قال أبو عثمان الحيرى: حق الصحبة أن توسع على أخيك من مالك، ولا تطمع في ماله، وتنصفه من نفسك،

---

(١) آية رقم ٣٨ من سورة الشورى.

(٢) الوليجة: بطانة الإنسان وخاصته يقال هو: وليجتهم أى أنه لصيق بهم.

(٣) آية رقم ١١ من سورة المجادلة.

(٤) آية رقم ٢٩ من سورة النجم.

ولا تطلب منه الإنصاف، وتكون تبعًا له، ولا تطمع أن يكون تبعًا لك، وتستكثر ما يصل إليك منه وتستقل ما يصل إليه منك.

ومن أدبهم فى الصحبة: لين الجانب، وترك ظهور النفس بالصوّلة.

قال أبو على الروزبادى: الصوّلةُ على من فوقك قحةٌ، وعلى مَن مثلِك سوءُ أدب، وعلى من دونك عجز.

ومن أدبهم: أن لا يجرى فى كلامهم: لو كان كذا.. لم يكن كذا.. وليت كان كذا.. وعسى أن يكون كذا؛ فإنهم يرون هذه التقديرات عليه اعتراضًا.

ومن أدبهم فى الصحبة: حذر المفارقة، والحرص على الملازمة.

قيل: صحب رجل رجلاً.. ثم أراد المفارقة، فاستأذن صاحبه، فقال: بشرط ألاّ تصحب أحدًا إلا إذا كان فوقنا وإن كان فوقنا أيضًا فلا تصحبه لأنك صَحبتنا أولاً. فقال الرجل: زال عن قلبى نيّة المقارنة ومن أدبهم: التعطّف على الأصاغر.

قيل: كان إبراهيم بن أدهم يعمل فى الحصاد ويُطعم الأصحاب، وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام، وربّما كان يتأخر فى بعض الأيام فى العمل، فقالوا ليلةً: تعالوا نأكل فطورنا دونه، حتى يعود بعد هذا يسرع!! فأفطروا وناموا، فرجع إبراهيم فوجدهم نيامًا، فقال: مساكين، لعلهم لم يكن لهم طعام.. فعمه إلى شىء من الدقيق فعجنه، فانتبهوا وهو ينفخ فى النار واضعًا محاسنه[1] على التراب. فقالوا له فى ذلك، فقال: قلت لعلكم لم تجدوا فطورًا فنمتم. فقالوا: انظروا بأى شىء عاملناه، وبأى شىء يعاملنا.

ومن أدبهم: أن لا يقولوا عند الدعاء إلى أين؟ ولم؟ وبأى سبب؟.

قال بعض العلماء: إذا قال الرجل للصاحب: قم بنا، فقال: إلى أين؟ فلا تصاحبه.

وقال آخر: من قال لأخيه أعطنى من مالك، فقال: كم تريد؟ ما قام بحق الإخاء.

وقد قال الشاعر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم  للنائبات على ما قال برهانا

ومن أدبهم: أن لا يتكلفوا للإخوان.

قيل: لما ورد أبو حفص العراق تكلّف له الجنيد أنواعًا من الأطعمة؛ فأنكر ذلك أبو حفص، وقال:

صير أصحابى مثل المخانيث يُقدّم لهم الألوان!!

---

(١) المقصود هنا وجهه ويداه..

والفتوة عندنا: ترك التكلّف، وإحضار ما حضر؛ فإنَّ بالتكلّف ربما يؤثر مفارقة الضيف. ويترك التكلّف يستوى مقامه وذهابه.

ومن أدبهم فى الصحبة: المداراة، وترك المداهنة.

وتشتبه المداراة بالمداهنة. والفرق بينهما: أن المداراة ما أدرت به صلاح أخيك فداريته لرجاء صلاحه، واحتملت منه ما تكره.

والمداهنة: ما قصدتَ به شيئًا من الهوى من طلب حظٍ أو إقامة جاه.

ومن أدبهم فى الصحبة: رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط.

نقل عن الشافعى رحمه الله أنه قال: الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط.

ومن أدبهم: ستر عورات الإخوان.

قال عيسى عليه السلام لأصحابه: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائمًا فكشف الريح عنه ثوبه؟.

قالوا: نستره ونغطيه. قال: بل تكشفون عورته.

قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟ قال: أحدكم يسمع فى أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويُشيعها بأعظم منها.

ومن أدبهم: الاستغفار للإخوان بظهر الغيب، والاهتمام لهم مع الله تعالى فى دفع المكاره عنهم.

حكى أن أخوين ابتُلى أحدهما بهوى فأظهر[1] عليه أخاه فقال: إنى ابتليت بهوى، فإن شئت أن لا تعقد على محبتى لله فأفعل، فقال: ما كنت لأحلّ عقد إخائك لأجل خطيئتك.

وعقد بينه وبين الله عقدًا أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله من هواه.

وطوى أربعين يومًا كلما يسأله عن هواه يقول: مازال.

وبعد الأربعين لأخبره أن الهوى قد زال. فأكل وشرب.

ومن أدبهم: أن لا يُحوجوا صاحبهم إلى المداراة، ولا يلجئوه إلى الاعتذار، ولا يتكلّفوا للصاحب ما يشق عليه.

---

(١) أظهره على السرّ أى أطلعه.

بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد الصاحب على مراد أنفسهم.

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: شرّ الأصدقاء من أحوجك إلى مداراة أو الجأك إلى اعتذار أو تكلّفت له.

وقال جعفر الصادق: أثقل إخوانى علىّ من يتكلّف لى، وأتحفظ منه، وأخفّهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى.

فآداب الصحبة وحقوق الأخوة كثيرة. والحكايات فى ذلك يطول نقلها.

وقد رأيت فى كتاب الشيخ أبى طالب المكىّ رحمه الله من الحكايات فى هذا المعنى شيئًا كثيرًا، فقد أودع كتابه كل شىء حسن من ذلك.

وحاصل الجميع أن العبد ينبغى أن يكون لمولاه[1] لا لنفسه، وإذا صاحب شخصًا تكون صحبته إيّاه لله تعالى، وإذا صحبه لله يجتهد له فى كل شىء يزيده عند الله زلفى، وكلّ من قام بحقوق الله تعالى يرزقه الله علمًا بمعرفة النفس وعيوبها ويعرّفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب، ويُوقفه من أداء الحقوق على بصيره ويفقهه فى ذلك كله، ولا يفوته شىء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق، وفيما يرجع إلى حقوق الخلق.

فكلُّ تقصير يُوجد من خبث النفس، وعدم تزكيتها، وبقاء صفاتها عليه.

فإن صحبت ظلمت بالإفراط تارة، وبالتفريط أخرى. وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق.

والحكايات والمواعظ والآداب، وسماعها لا يعمل فى النفس زيادة تأثير، ويكون كبئر يقلّب فيه الماء من فوقه، فلا يمكث فيه ولا ينتفع به.

وإذا أخذت بالتقوى والزهد فى الدنيا نبع منها ماء الحياة، وتفقهت، وعلمت، وتأدّت الحقوق وقامت بواجب الآداب بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

---

(١) وزادت بعض النسخ (العبد ينبغى له أن يكون لمولاه ويريد كل ما يريد لمولاه.. إلخ).